سُبُلُ النَّجَاةِ
فِي زَمَنِ الفِتَنِ

أ.د. صالح بن عبد العزيز سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلاميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ نبينا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ:

الحمد لله الذي يسّر هذا اللقاء بهذه الوجوه الطيبة وهذه الثُلّة المباركة إن شاء الله. والحقيقة أنّ مثل هذه المجالس مجالس تُفرح النفوس، وهذه هي مجالسنا التي نعهدها معشر طلاب العلم. منذ الزمن الغابر كانت مجالس طلبة العلم مجالس محفوفة ومعمورة بالعلم، ما كان هناك وقت للقال والقيل والدخول في الفتن التي تُثار بين طلبة العلم، إنّما كانت مجالس علم. وإذا جاء شيء عارض فإنه يتكلم فيه قدر الحاجة ثم نعود إلى الأصل وهو العلم، مجالس فيها كتب، فيها قراءة، فيها بحث، فيها نقاش، فيها مداولة للفائدة، هكذا كانت مجالسنا، ونرجو أن تبقى هذه المجالس بهذه الصبغة وهذه الصفة التي يحصل رُوَّادها على الفائدة إذا حضروا.

طلبة العلم أطلُبُ منهم في هذا الزمان على وجه الخصوص أن يعرفوا قدرهم وأن يعرفوا الأمانة المُلقاة على عاتقهم، هناك أمانة تحمّل، وهناك أمانة أداء:

على كل واحد منا معشر طلاب العلم أمانة التحمل، يعني: في تحصيل العلم، فأنت وغيرك والجميع والكل بحاجة إلى هذا العلم. ودعوتنا هذه الدعوة السلفية المباركة ميزتها عن غيرها من الدعوات أنها دعوة شاملة يصل خيرها إلى جميع الناس، الدعوة السلفية لا تستهدف طائفة دون أخرى، لا تختصُّ بطبقة المتعلِّمين دون الجُهال، أو الشباب دون غيرهم، أو الطبقة الغنية دون الفقيرة، الدعوة السلفية دعوة على نهج النبوة. النبي ﷺ يقول: «مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا»،

المطر إذا نزل لا يتخير مكانًا دون آخر، بل يعمُّ السهل والجبل وجميع الأماكن، هكذا الدعوة السلفية.

الدعوة السلفية تكون موجهة للصغار، والدعوة السلفية تكون موجهة للكبار، وللذكور وللإناث وللمسلمين وللكفار ولأهل السنة ولأهل البدعة، لا تَدَعُ أحدًا إلا وتسعى في الوصول للخير والنور والهدى والكتاب والسنة وإيصال المنهج السلفي إليه. وهكذا ينبغي أن نكون -يا إخواني- إذا أردنا أن نسلك في هذا الطريق، لابد أن نترسّم ذلك.

أعودُ فأقولُ: أمانة التحمل تقتضي الاجتهاد في العلم، هذا الذي ينفع الناس الآن، وهذا الذي يُفيد النّاس.

الناس يا إخواني بحاجة ماسة، ليس إلى قال وقيل ولا إلى إدخالهم في مشكلات ومتاهات، الناس تعبت وملت، الناس تريد الكتاب والسنة، تريد الإجابة على تساؤلاتهم وحلِّ مشكلاتهم وتعليمهم بالكلمة الهادئة والأسلوب الحسن والحجة المقنعة، وهذه هي حقيقة الدعوة السلفية.

ثم بعد ذلك أمانة الأداء بالجِدِّ والاجتهاد والنشاط. اليوم -يا إخوتاه- الفتن كثرت والتيارات تختطف كثيرًا من المسلمين عن جادة الحق؟ أين الغيرة على حرمات الله ﷻ؟ وأين الحرص على البذل في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى والله جَلَّ وَعلا يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ**﴾ [الصف: 14]؟ هذا واجب من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أوجبه في كتابه علينا جميعًا على جميع المؤمنين أن يكونوا أنصار الله ﷻ. بمعنى: أن ننصر دينه وكتابه وسنة رسوله ﷺ، وأن نذُبَّ عن هذا الدين وعن هذه السنة بكل ما استطعنا.

وا أسفاه لطالب العلم يرى الصراع المرير بين الحق والباطل والتوحيد والشرك والسنة والبدعة وهو بارد لا يُحرك ساكنًا، لا يجد له مكانًا بين أهل الحق الذين يسعون لنشره، والذين يسعون إلى البذل والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يبذلون

في سبيل الله ﷻ الغالي والرخيص، لا يجد لنفسه ذلك، مشغول يطالع فقط وينظر، وجد مكانًا له بين النُظّار، هذا من الخذلان والعياذ بالله -يا إخوتاه-.

الموفَّق هو الذي لا يدع مجالًا لأن ينصر فيه دين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إلا بذل نفسه، والكل بحسب حاله وبحسب حاجته، والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يُقسِّم الأعمال كما يُقسِّم الأرزاق. إذن -يا إخوتاه- نحن في وقت ليس فيه مجال للتقاعس، وليس فيه مجال لورع كاذب، كلنا نستطيع أن نبذل وأن نقدم لدين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أشياء كثيرة.

هذا الزمن زمن فتن، زمن إشكالات كبرى تعترض عند الناس في كل شيء في دينهم، في عقيدتهم، في أخلاقهم، في ناشئتهم، في ذكورهم، في شبابهم، في إناثهم، على جميع الجهات هناك جبهات، جبهات قوية وأسلحة شديدة وسهام مريشة تجاه الحق، شبهات تُقذف من كلِّ جهة. ولذلك التيّارات التي تعصف بأهل الحقِّ، وناشئتهم، وشبابهم كثيرة جدًّا، أصبحنا نسمع ونرى أشياء تُذيب القلب في الحقيقة.

ما كان الإنسان يتصور أن أحدًا من شباب المسلمين ومن أوساط أهل السنة والجماعة يقع فيها؛ تيارات إرهابية، تيارات لادينية ربوبية يوجد من أبناء المسلمين من يصبح من عبدة الشيطان، هل يتصور هذا أحدٌ؟ يوجد من شباب المسلمين اليوم من يصبح عقلانيًّا معتزليًّا صريحًا، وكان بالأمس من طلبة العلم الذين يحتفُون بالدّليل ويقدِّمونه على النقل. من أبناء المسلمين اليوم من ينهج نهج القرآنيين، فيُنكرُ السنة جملة وتفصيلًا. من أبناء المسلمين من يسلك طرائق أهل البدع والضلال، أهل الشرك والبدعة على أنحاء مختلفة، يوجد سلسلة طويلة لو أردنا أن نُفصِّل فيها لطالَ المقامُ.

المقصودُ: أنّ هذا زمنُ الجدِّ والاجتهادِ، وهذا قدَر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى علينا، وهذا أمره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لنا، الله جَلَّ وَعلا يقول: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾ [الحج: 78]، هذا أمرٌ متعيّنٌ على كلِّ إنسان، لا سيما من وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إلى سلوك طريق الهداية والاستقامة على الدين ومحبة العلم والقرب من الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأهلها، هذا يتعيّن عليه الجدُّ والاجتهاد في تحقيق هذين الأمرين: أمانة التحمل،

وأمانة الأداء، ولا سيما ما يتعلق بالفتن الواقعة والمشكلات الحاصلة التي تعصف بأديان الناس. وأيضًا ما يتعلّق بالفتن والقلاقل وتلك الأمور التي تموج موج البحر، والّتي إذا دخلت بين الناس أصابتهم بارتباط وحيرة وأوقعت بينهم الاختلاف والاضطراب. مثل هذه الفتن ينبغي أن تُنازل بالعلم، وأن يكون طالب العلم متسلِّحًا أمامها بقواعد العلم وطريقة أهل العلم، فإنّ هذا هو الذي ينفع بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالفتن أشكال وألوان كلُّ ما صرف عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، سواء كان من جانب الشبهات أو كان من جانب الشهوات فإنه يدخل في مفهوم الفتن.

لكن للفتن مفهوم خاص، أخصُّ من هذا المفهوم العام وهو: تلك الأمور العظيمة التي تموج موج البحر، وهذه تحتاج أن تُنازل كما ذكرتُ بالعلم، وتُنازل بقواعد أهل العلم، ولا سيما تلك **الأصول والضوابط** التي تُعِين الإنسان بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على أن يسلك إلى طريق برِّ الأمان، فيسلَم من الوقوع فيها، ويسلَم من الانحراف عن جادة الحق والصواب، بحيث يعرف متى يتقدّم، ومتى يتأخر، ومتى يقف، ومتى يتكلّم، ومتى يسكت، هذا من الأمور المهمة في زمن الفتن التي نعيش فيها بين تمييز الحقِّ من الباطل، أو المصلحة من المفسدة، هذا ربما يتيسر كثيرًا. لكن الذي يحتاج إلى جدٍّ واجتهاد وقدر من العلم ما يتعلّق بتحصيل أصلح المصلحتين وترجيح أحدهما على الآخر، وكذلك الترجيح بين المفسدتين وتقديم المفسدة الدنيا في سبيل دفع المفسدة العليا، هذا من خاصة أهل العلم، وهذا أمر يحتاج إلى جدٍّ واجتهاد.

❑ الشّريعة جاءت لجلب المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها، **ولذا ينبغي على طالب العلم على الداعية الموفق أن يكون حريصًا في زمن الفتن على تحقيق هذا الأمر:** الشريعة جاءت بجلب المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها. وبالتّالي تُعمل قواعد أهل العلم في باب التّعارض:

إن تزاحم عدد المصالح ... يُقدَّم الأعلى من المصالح

وضدُّه تزاحم المفاسد ... يُرتكب الأدنى من المفاسد

❑ **أيضًا ما يتعلّق بالنّظر للمآلات هذا مما ينبغي على طالب العلم أن يتأمّله ويُحسن النظر فيه ولا سيما في أيام الفتن**، فإنّ الشّريعة نبّهت على ضرورة مراعاة المآلات وأنّ الأمور يُحكم عليها بمآلاتها؛ فما يؤول إلى الشرِّ ينبغي أن يُحسم البعد فيه، وما يؤول إلى الخير ينبغي أن تُسهَّل الأمور إليه. فمثل هذه القواعد ومثل هذه الأصول من المهمّات التي ينبغي أنْ لَا تغيبَ عن بال طالب العلم.

❑ **أمرٌ آخرٌ يندرج تحت سُبل الوقاية من الفتن ينبغي أن يُلاحظه المسلم ولا سيما طالب العلم، وهو:** أن يكون قريبًا من أهل العلم، الفتنُ -يا إخوتاه- إذا أقبلت عرفها كلّ عالم، فإذا أدبرت عرفها كلُّ جاهل. وعند ابن حبّان بإسناد لا بأس به، قال ﷺ: «**الْبَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ**»، الكبار في العلم والكبار في السنِّ والكبار في الخبرة، طالب العلم بحاجة إلى أن يكون قريبًا منهم حتى يوفَّق إلى الحقِّ والصواب. ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ [النساء: 83]، أولُو العلم هاهنا هم أهل العلم.

إذن لزوم غرز أهل العلم إبان زمن الفتن، هذا من المهمّات التي ينبغي على طالب العلم أن يأخذ نفسه به، ولا عليك -يا رعاك الله- أن تكون في بعض الأمور متِّهمًا رأيك وتابعًا لأهل العلم، حتّى لو كان يبدو لك ما يبدو من رأي مخالف، لكن لقولك وموقفك ورأيك تأثير وأثر على غيرك، ينبغي حين ذلك أن تلاحظ معنى التواضع ومعنى معرفة قدْر النفس حتى لا يؤول تصرُّفك إلى ما لا تُحمد عقباه.

كثير من المشكلات التي نعيشها على جميع المستويات سواء كان فيما يتعلّق بالمشكلات في دائرة أهل السنة أو خارج أهل السنة سببها: إهمال هذا الأمر وإعجاب الإنسان برأيه، أنا طالب علم وأنا نظرتُ وأنا بحثتُ، وبالتالي فإنه يقرِّر ويُقعد وينفرد، فتترتّب على ذلك إشكالات تلو إشكالات. هاهنا ينبغي أن نُذكِّر أنفسنا بضرورة أن يُلزم الإنسان نفسه غرز أهل العلم، ما أحسن أن تجتمع الكلمة بين طلاب العلم على القرب والألفة مع أهل العلم والأخذ بآرائهم، وبذلك يسودُ الخير إن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

❑ **أيضًا من الأصول التّي ينبغي أن تُراعى في زمن الفتن حتى يسلمَ المسلم ويسلمَ**

طالب العلم: أن يأخذ الإنسان نفسه بجانب الاحتياط. الأمور ليس دائمًا تُقاس بمبدأ أن هذا حق وأن هذا صواب، كثير من الأمور لا سيما في واقعنا المعقَّد الذي نعيشه كثير من الأمور تقاس بغير ذلك، يتجاذبها عدة مآخذ، ربّما تصيب الإنسان بشيء من الحيرة، تصيبه بشيء من التوقف، هل يسلك هذا أو يسلك هذا، ينبغي على الإنسان أن يحرص دائمًا على سلامة دينة وعلى سلامة دنياه وعلى سلامة نفسه وسلامة غيره قبل أن يتقَّحم شيئًا ربما يترتب عليه مفسدة. فالأخذ بما فيه السلامة والاحتياط عند الاشتباه هذا من الأصول المهمة التي ينبغي أن تُراعى في زمن الفتن، فإنّ السلامة لا يعدلها شيء كما قال السلف رَحِمَهُم اللهُ.

إذن من عود نفسه سلوك مسلك الاحتياط فإنه يسلم غالبًا بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من الوقوع في غالة الفتن.

ومعنى الأخذ بالاحتياط: أن تأخذ بالقدر المتيّقن ثمة أمر متيقن، ثمة أمر متّفق عليه، وثمة أمر يمكن أن يكون مآله إلى شرٍّ وإلى فساد، هاهنا ينبغي أن يكون الأصل وأن تسلك المسلك المتيقن ولا تجازفْ بنفسك ولا تجازفْ بغيرك. والأمثلة على كل حال كثيرة التي وقع فيها أُناس وأوقعوا فيها غيرهم في مشكلات كثيرة، والسبب: أنهم استعجلوا في موضع كان ينبغي أن يتريّثُوا فيه وأقدموا في موضع كان ينبغي أن يتوقفوا فيه. إذن هذا أيضًا من الأصول المهمة التي ينبغي مراعاتها.

❑ **أيضًا من الأصول المهمّة التي ينبغي أن يراعيها المسلم حتى يسلم إبّان الفتن:** أن يُراعي أخلاقًا عظيمة وآدابًا شريفة وهي **الحلم والرفق والأناة**، هذه أخلاق ثلاثة ما أحسن التحلّي بها ولا سيما أيام الفتن! وطالب العلم هو أولى النّاس بالتخلُّق بهذه الأخلاق فإنها محبوبة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والله يحبُّ من يتخلّقُ بها.

▪ **أوّلًا: أن يتحلّى الإنسان بالحلم:** والحلم ضد الغضب، والنبي ﷺ تكرّر منه الوصيّة بترك الغضب، لمَ؟ كما قال أصحاب رسول الله ﷺ: "فإنّ الغضب جماعُ الشرِّ".

على الإنسان أن يعود نفسه على أن يسلك مسلك الحلم، والحلم بالتحلّم، فلا يتخذ قرارًا ولا موقفًا ولا يُصدِرُ كلمة وهو في موضع غضب، فإنّ هذا في الغالب أنه لا يشتمل على خير، بل إنه يشتمل على شرٍّ. وفي مقابل ذلك فإنّ الله ﷻ يحبُّ الحلم، والنبي ﷺ أخبر أشجَّ عبد القيس بأن فيه خصلتيْن يحبهما الله ورسوله قال: «الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ».

▪ **الخُلُق الثّاني: خُلُق الرفق:** والرفق ضد العنف والشدّة، والله ﷻ رفيق يحبُّ الرفق، والله ﷻ كما جاء في الصحيحين: (يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ)، ولاحظ العموم هاهنا؛ الله ﷻ ليس يحبُّ الرفق في أمر دون أمر، بل إنه يحب الرفق في الأمر كلِّه. فلاحظ -يا رعاك الله- هذا الأمر الرفق في كل أحوالك، وفي كل تصرفاتك، ومع كلِّ أحدٍ من موافق ومخالف، هذا ما يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن تكون رفيقًا تاركًا ضد ذلك. والله ﷻ كما أخبر النبي ﷺ والحديث عند مسلم: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ». إذا رُمت تحصيل أمر فاعلم أنك إن سلكت طريق الرفق فإن الله ﷻ يعطيك ويرزقك بسبب هذا الرفق ما لا يعطيك على غيره.

لو سار ألف مُدَجَّجٍ في حاجة ... ما حازها إلا الذي يترفَّقُ

فاحرص -يا رعاك الله- أن تكون مترفِّقًا في أمرك.

▪ **الخُلُق الثالث: الأناةُ:** والأناة ضدُّ العجلة، وضدُّ الطيش، وهذا أيضًا من الخُلُق الحسن، كما جاء في الحديث السابق: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ».

ما أحسن التؤدة وما أحسن التأنِّي، ولا سيما عند الصعاب والمشكلات والمشتبهات! فعلينا أن نأخذ أنفسنا بهذه الأخلاق حتى نسلمَ، وحتى يسلمَ من هو حولَنا، وحتى لا نكون سببًا في مشكلات وتأخّرٍ للدّعوة مع الأسف الشديد. اليوم أيُّ موقف يحصل في الغالب أنه يعود تأثيره تأثيرًا عامًّا لا خاصًّا، والسببُ في هذا: عدم مراعاة القواعد السابقة، أو الوقوع في ضدِّها عجلة وعنف وشدّة وعدم مراعاة الحلم والرفق، وبالتالي تقع المشكلات وتقع الفتن.

هذه الكليمات ووصايا نحن والمتكلّم قبل السّامع بحاجة إليها، أسأل الله جَلَّ وَعلا أن يعيذنا جميعًا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يثبِّتنا على هذا الدين حتى نلقاه، نسأل الله الثبات على هذا الدِّين. ونقول كما كان النبيُّ ﷺ يُكثر، فإنّه كان من أكثر دعائه عَليهِ الصَّلَاةُ والسَّلاَم: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ».

وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.